أثر التلاقح الفكري والثقافي بين المسلمين وأهل الذمة في إشاعة التعايش والتسامح الديني في العراق خلال العصر العباسي الأول (132-218هـ/750-833م)

أ.د. محمد كريم إبراهيم الشمري الباحثة. سوسن أحمد نجيب العوادي
جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

Effect of Intellectual and Cultural Interaction between Muslims and the Invectives on the Peaceful coexistence and Religious Leniency in Iraq Throughout the First Abbsid Era (132-218 Hegira / 750-833 A.D)

Prof.Dr. Muhmmed Alshimary **Sausin Ahmed**
University of Babylon / College of Basic Education

Abstract:

The first Abbasid Era (132-218 Hegira / 750-833 A.D) is considered one of the flourishing eras that developed the Arabian intellect , due to transferring of other different sciences from different languages to Arabic , because of the urgent need of Muslims to be open for other developed nation's culture as a result to the concern of Abbasid caliphates in translating many important fields in what they need to in politics and social affairs like: medicine, astronomy, mathematics and philosophy , it was not only encouraging from caliphates but by all community categories people in Baghdad, Basrah and Kufa and all parts of Islamic Empire that led to overwhelming the spirit of coexistence and forgiveness between Muslims and Ahll Aldimmis. The translation has become a revolution had a great effect on different cultural , literature and scientific levels and posed a bridge between different cultured and heritages , the translation include the "word" that helped in interaction between ideas and believes and conversation with other live languages, cultural exchange, literature grant, scientific participation, and it's the one that conserve the international culture from loss and extinction, so translation has become a means for spreading cultures, embosoming of cultures and meeting instead of confliction or diverging.

We have concentrated in the third section on the effect of the "Baghdadi Wisdom House" in enhancing the coexistence and religious forgiveness between Muslims and invectives.

We have concluded that: the conceptual cross-fertilization between Muslims and Ahll Aldimmis , through work and participation life between them, plus to forgiveness in intellect and belief, all that led to overwhelming of spirit of coexistence and religious forgiveness between Muslims and invectives from all other different religions

الخلاصة

يعد العصر العباسي الأول (132-218هـ/750-833م) من العصور الزاهرة لتنمية الفكر العربي؛ بسبب نقل العلوم من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية؛ وذلك لحاجة المسلمين الشديدة في هذا العصر إلى الانفتاح على تراث الأمم المتطورة، نتيجة اهتمام الخلفاء العباسيين بترجمة جوانب مهمة مما كانوا يحتاجون إليه في الشؤون السياسية والاجتماعية، لاسيما في مجالات: الطب والفلك والنجوم والرياضيات والفلسفة والمعارف والعلوم الأخرى، ولم يقتصر الأمر على تشجيع الخلفاء فحسب، فقد كان الاهتمام عاماً وشاملاً بين فئات المجتمع العراقي في بغداد والبصرة والكوفة وسائر أرجاء الدولة الإسلامية، مما غرس وأشاع روح التعايش والتسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة.

لقد غدت الترجمة ثورة عظيمة الأثر على مختلف المستويات والصعد الثقافية والأدبية والعلمية وغيرها، وشكلّت جسراً للتواصل مع الثقافات المختلفة والحضارات المتعددة، إذ أن الترجمة هي التي تشكل فيها الكلمة: الركن الأساس، كان لها الأثر الكبير في تلاقح الأفكار وثقافتها، والتفاعل والحوار مع الثقافات واللغات الحية، فالترجمة ابداع حيوي، وتزاوج

فكري، متبادل ثقافي، وعطاء أدبي، ومشاركة علمية، وهي التي حفظت التراث العالمي من الضياع والاندثار، ومن ثم فإن الترجمة أصبحت وسيلة لتبادل الثقافات ونشرها، وتعانق الحضارات والتقائها، لا تنافرها وصراعها.

واستخلصنا في هذا البحث: ان التلاقح الفكري بين المسلمين وأهل الذمة من خلال العلم والحياة المشتركة بينهما، فضلاً عن التسامح في الفكر والمعتقد، كل ذلك أدى إلى شيوع روح التعايش والتسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة من سائر الديانات والملل الأخرى.

المقدمة

ان التلاقح الفكري والثقافي كان له أبلغ الأثر في شيوع وسيادة روح التعايش والسلام، خلال العصر العباسي الأول (132-218هـ/750-833م)، بناءاً على ما وضعه خلفاء بني العباس من معايير مادية ومعنوية لمن يقدّم من – غير المسلمين – إلى الأمة فكراً مؤسساً له أو منقولاً عن الأمم الأخرى إلى الدولة العباسية، فقد نظر العلماء والمفكرون من غير المسلمين، في علومهم لما يخدم الإنسان بشكل عام ومنهم من نقل علوم الأمم الأخرى من خلال ترجمتها إلى اللغة العربية، فضلاً عن ترجمة الفكر العربي، والعلوم العربية من لغتها الأم إلى اللغات الأخرى، فكان هنالك تبادل ثقافي اتصف بالتوازن بين العرب وبقية الأم، مبنياً على أساس الإطلاع على تجارب وعلوم الأمم السالفة، التي طوّعت هذه العلوم لخدمة الإنسان، لاسيما ان التبادل الفكري والثقافي شكّل أواصر متينة وروابط صحيحة بين العرب المسلمين من جهة، وبين أهل الذمة من المترجمين من جهة أخرى أياً كانت ديانتهم أو قومياتهم، مما أسهم إسهاماً مباشراً في تعزيز وتقوية التعايش والتسامح الديني وجعل المجتمع أكثر انسجاماً، فقد مارس الذميون نشاطهم الثقافي والعلمي بحرية تامة دون أية عراقيل أو عقبات أو اعتراضات وكانت غالبية المؤلفات والمصنفات التي ترجموها تعبّر عن أصول وعقائد أديانهم، كما قاموا بتعليم أبنائهم في كنائسهم وأديرتهم، بل ان بعضهم تتلمذ على أيدي معلمين مسلمين، وتتلمذ عدد من أبناء المسلمين على أيدي معلمين ذميين، ولاسيما في المجالات التي برزوا وبرعوا فيها، وهذا يدل على حجم الحرية الكبيرة التي عاشوها.

تضمن البحث أربعة محاور، تناول المحور الأول: معنى مفهومي التعايش والتسامح في اللغة والاصطلاح، كذلك درسنا مصطلح أهل الذمة ومدلولاته والعناصر التي شملها. أما المحور الثاني، درسنا فيه أثر اللغة العربية في إشاعة روح التعايش والتسامح الديني، فيما عُني المحور الثالث بحركة التعريب والترجمة في العصر العباسي الأول (132-218هـ/750-833م). في حين ركّز المحور الرابع على أثر بيت الحكمة البغدادي في ترسيخ التعايش والتسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة. نخلص إلى ان الترجمة تعد من أهم الوسائل قديماً وحديثاً في الحوار الحضاري بين الأمم والشعوب من خلال منطق الأخذ والعطاء المتبادل بين الثقافات المختلفة وكذلك بين اللغات وغيرها.

المحور الأول

التعايش والتسامح في اللغة والاصطلاح

أولاً – التعايش في اللغة والاصطلاح

1- التعايش لغة

وردت مفردة التعايش في المعاجم العربية من المصدر (عيش)[1] بفتح العين: العيش: الحياة والمعيشة التي يعيش بها الإنسان من المطعم والمشرب، وتعايش القوم بالألفة والمحبة أو المودة: عاشوا مجتمعين على الالفة والمودة[2] وعاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشة وعيشة ومعيشاً، العيش والمشرب، والعيشة: ضرب من العيش، يقال: عاش عيشة صدقٍ، وعيشة سوءٍ[3].

(1) الفراهيدي، الخليل بن احمد،(ت:170هـ/790م)، كتاب العين، تح: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت، د.ت)،261/2.

(2) الهنائي، علي بن حسن الملقب: كراع النمل،(ت:310هـ/922م)،المنجد في اللغة، دار المشرق، ط37، (بيروت،1402هـ/ 1988م)،ص540

(3) الازهري، ابو منصور محمد بن احمد، (ت:370هـ/985م)، تهذيب اللغة، تح: د. احمد عبد الرحمن مخيمر، دار الكتب العلمية، (بيروت،1425هـ / 2004م)،269/2-270.

وقال أكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[1]،ان المعيشة الضنك عذاب القبر[2]، والضنك في اللغة: الضيق والشدة[3]، والعيش يعني، الحياة، وقد(عاش) يعش (معاشاً)، (وأعاشه) الله عيشة راضية[4] قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[5]، وفي لسان العرب[6]، وردت مفردة التعايش أيضاً من المصدر (عَيْش)، بفتح العين وسكون الشين، وتعني عاش – عيشاً، وعيشة ومَعاشاً، ومَعيشاً، ومعيشة، وعيشوشة، أي صار ذا حياة، عِيش، وأعاش – أعاشه، جعله يعيش، وعايشه بمعنى عاش معه وتعيَّش: سعى وراء أسباب المعيشة، وتعايش القوم بالألفة والمودة.

2- التعايش اصطلاحاً

لا بد من القول ان التعايش يحمل مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية تهدف جميعها إلى إيجاد بيئة ملائمة لإسعاد المجتمع البشري، وفي هذا السياق قال ابن خلدون [7]: " ان الاجتماع الإنساني ضروري"، ومن أسس التعايش الإنساني هو التعارف، فالتعارف هو السبيل لكسر الجهل المتبادل وتعميق التآلف الاجتماعي البشري[8]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[9]،ان هذه الآية ألغت تماما التفاخر بالانساب، لا لكرامة بعضكم على بعض، بل لكي تتعارفوا ويتم أمر اجتماعكم.

إذن، التعايش: هو مبدأ لتقبل الآخر ضمن أجواء تتعدد فيها الثقافات والديانات، ضمن مجتمع واحد[10].

ثانيا: التسامح في اللغة والاصطلاح

1- التسامح لغة:

أصل كلمة التسامح في اللغة العربية يعود إلى فعل ثلاثي أو مادة (سمح)، سَمَحَ: رجلٌ سَمْحٌ، ورجال سُمَحَاءْ، وقد سَمُحَ سَماحَةً، جاد بماله وسمح لي بذلك يَسمحُ سَماحةً وهو الموافقة فيما طلب . والتَّسميح: الشرعة، ورُمحٌ مُسمَّح: ثُقِّفْ حتى لان، ورجل مِسْماحْ، أي جَوادٌ[11] وتقول العرب: عليك بالحق (فان فيه لمسمحا- كمسكن- أي متسعاً) و(السماح رَبَاحٌ)، أي المساهلة في الاشياء تربح صاحبها. والسماح السماحة – الجود، وسمح به: أي جاد به، وسمح لي: اعطاني والمسامحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا[12]، وفي الحديث عن الزهري[13] قال:((مر النبي محمدﷺ على اعرابي يبيع

(1) سورة طه، الآية/124.

(2) المحلي، العلاّمة جلال الدين محمد بن أحمد(ت864هـ/1459م)، وتلميذه السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر(ت:911هـ/1506م)، تفسير الجلالين، الدار العربية للطباعة، مكتبة النهضة، قدم له وعلق عليه: فضيلة العلاّمة محمد كريم بن سعيد راجح، (بغداد، د.ت)، ص618؛ الطباطبائي، محمد حسين(ت:1402هـ/1982م)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، (بيروت، 1417هـ/ 1997م)،225/14.

(3) الازهري، تهذيب اللغة، 270/2.

(4) الجوهري،إسماعيل بن حماد(ت:393هـ/1002م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: د. اميل بديع يعقوب وآخر، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، 204/3.

(5) سورة القارعة، الآية/7.

(6) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي(ت: 711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، ط3، (بيروت، 1414هـ/1993م) 540/8.

(7) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت: 808هـ/1405م)،المقدمة، دار القلم، (بيروت،1398هـ/ 1978م)، ص41.

(8) المحمداوي، د.علي عبود، خطاب الهويات الحضارية من الصدام إلى التسامح، دار ابن النديم، (وهران، د.ت)، ص117-118.

(9) سورة الحجرات، الآية/ 13.

(10) الخطيب، عمر عودة، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم الاجتماعية، دار العلم للملايين، (بيروت،1405هـ/ 1985م)، ص185.

(11) الفراهيدي، كتاب العين، 272/2.

(12) الجوهري، الصحاح في اللغة، 554/1؛ محمد مرتضى الحسيني(ت:1205هـ/1790م)، تاج العروس، (بيروت، د.ت)، 486/1.

(13) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي، كنيته ابو بكر(ت: 124هـ)، فقيه، حافظ، وهو من رؤوس الطبقة الرابعة، متفق على جلالته واتقانه، ينظر: ابن سعد، ابو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري البغدادي(ت: 230هـ)، الطبقات الكبرى، تح: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم

شيئا، فقال: "عليك بأول سوم[1] أو أول السوم فان الارباح مع السماح"[2]، فالتسامح كلمة رقيقة لا يعرف معناها الا صاحب العقل الناضج، هي كلمة بسيطة لكن معناها جميل ومكانتها اجمل في الحياة.

2- مفهوم التسامح اصطلاحا

عُرِّف التسامح على انه تصرف وتصور ورؤية فكرية أزاء العقائد والممارسات المختلفة وليس المتوافقة[3]، وقد وردت عدة معانٍ واصطلاحات للتسامح كلاً يعطيها تعريفا حسب وجهة نظره:

1- احتمال المرء بلا اعتراض،ولا اعتداء على حقوقه الدقيقة بالرغم من قدرته على دفعه[4]، ان هذا التعريف للتسامح لا يعبر عن وجهة نظرنا بكل ما تعنيه مفردة التسامح من معانٍ، فهو لم يشمل كل أنواع الاعتراض ولم يفصّلها تفصيلا دقيقاً، فهناك اعتراض على العقيدة او على المبدأ او على وجهة النظر أو على مواقف حياتية معينة.

2- عُرِّف على انه: استعداد عقلي أو قاعدة سلوكية قوامها ترك حرية التعبير عن الرأي لكل فرد حتى وان كنا لا نشاطره رأيه[5].

3- والمعنى الآخر هو: احترام ودي لآراء الآخر، وذلك باعتبارها مساهمة في الحقيقة الشاملة[6].

4- وعرف التسامح كذلك على انه: موقف من يقبل لدى الآخرين وجود طرق تفكير وطرق حياة عما لديه، فيصبح مبدأ التسامح مبدأً توافقياً، ويكون الغرض منه ليس الأخذ بالممنوعات بل الوصول إلى التوافقات[7].

5- وتعريف آخر ان تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه وان كانت مضادة لآرائك[8]، ويبدو ان هذا التعريف- على الرغم من إيجازه – هو أكثر شمولية، فمشكلة التعبير عن الرأي هي مشكلة تعاني منها البشرية، وقد تتطور هذه المشكلة لتصبح في نهاية الأمر باباً مفتوحاً للصراع؛ وذلك ان اغلب الصراعات والصدام بين الحضارات والأديان سببه الاختلاف والتقاطع في الرأي والجدال، الذي يفضي في نهاية الأمر إلى الحرب.

ثالثاً- أهل الذمة

1-تعريف أهل الذمة:

أ-**التعريف اللغوي:** تفسر الذمة بالعهد وبالأمان وبالضمان[9]، وفي القاموس المحيط، الذمة: هي العهد والكفالة[1]، الذي يوقع بين المسلم والذمي لإبداء الولاء منه لتلقي الحماية من المسلم، كما يجب عليه دفع الجزية[2].

والحِكم، ط2، (المدينة المنورة، 1408هـ/1987م)، 157/1؛ السجستاني، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد (ت:280هـ893م)، نقض الامام ابي سعيد على المريسي الجهمي العنيد، تح: رشيد بن حسن الالمعي، مكتبة الرشيد، (د.م،1418هـ/ 1998م)، 175/1؛ المقدسي، عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور (ت:600هـ/1203م)، الاقتصاد في الاعتقاد، تح: احمد بن عطيه بن علي الغامدي، مكتبة العلوم والحِكم، (المدينة المنورة، 1414هـ/ 1993م)، 188/1.

(1) السوم: عرض السلعة على البيع، ويقال: سمت فلانا سلعتي سوما إذا قلت أتأخذها بكذا من الثمن، المساومة، المجاذبة بين البائع والمشتري على السلعة، وفصل ثمنها، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 308/7.

(2) البيهقي، أبو بكر احمد بن الحسين بن علي بن موسى(ت: 458هـ/1065م)، سنن البيهقي الكبرى، تح: محمد بن عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، (مكة المكرمة، 1414هـ/ 1994م)، 36/6.

(3) مليكان، مصطفى، التسامح وجذور اللاتسامح، مركز دراسات فلسفة الدين، (بغداد، 1425هـ/ 2005م)، ص81.

(4) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، (قم، 1414هـ/ 1994م)، 271/1.

(5) لالاند، اندريه، (ت:1382هـ/ذ 1963م)، الموسوعة الفلسفية، 1460/3.

(6) المرجع نفسه، 1461/3.

(7) علبي، عاطف، التسامح والثقافات، مجلة التسامح، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ع5، (عمان، 1424هـ/2004م)، ص300.

(8) صليبا، المعجم الفلسفي، ص272.

(9)الفيومي، احمد بن محمد بن علي المقري(ت:770هـ/ 1368م)، المصباح المنير، الدار النموذجية، ط3، (بيروت، 1420هـ/1999م)، ص210.

وعرّفهم الشهرستاني[3] بأنهم: " الخارجون عن الملة الحنيفية والشريعة الإسلامية، ممن يقول بشريعة وأحكام وحدود وأعلام وهم انقسموا إلى من له كتاب محقق مثل التوراة والإنجيل، فهم أهل الكتاب [4]، وإلى من له شبهة كتاب مثل المجوس".

ب- الاصطلاح الفقهي: الذمي هو غير المسلم الذي يقيم في الدولة الإسلامية معدوداً من رعاياها، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم[5]، فله حق ممارسة شعائره، ومعتقداته في ظل الدولة العربية الإسلامية.

وهو أيضاً الذمي، يطلق في شرع المسلمين على كل من دخل في ذمامهم، أي تحت رعايتهم وحمايتهم وصون عهودهم[6]؟

ومن هذا المنطلق وضع لهم نظام، عرّفهم بواجباتهم، وضمن لهم حقوقهم في الوقت نفسه، أما الواجبات فهي دفع الجزية، وكان يشترط على الذميين نوعين من الشروط، أحدهما مستحق والآخر مستحب، أما المستحق فشمل ستة شروط يجب تحقيقها هي: احترام القرآن، والرسول محمد ﷺ، وعدم الطعن في الإسلام، وألا يصيبوا مسلمة بزنا أو نكاح، وألا يحولوا مسلماً عن دينه، وألا يعينوا أهل دار الحرب، أما المستحب فيشمل شروطاً ستة أيضاً منها أن تكون مبانيهم أقل ارتفاعاً من مباني المسلمين، وألا يسمعوا المسلمين أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، وعدم المجاهرة بشرب الخمر أو إظهار الصلبان والخنازير[7]، والفرق بين الشروط المستحقة والمستحبة أن الأولى واجبة ونقضها يؤدي إلى الخروج من عقد الذمة وينتقض عهدهم، أما الثانية فلا يؤدي ارتكابها إلى نقض عقد الذمة، ولم يتم التأكيد عليها.

والحكمة في عقد الذمة معهم هو احتمال دخولهم في الإسلام عن طريق مخالطتهم للمسلمين وإطلاعهم على شرائع الإسلام، وليس المقصود من عقد الذمة تحصيل المال، وتقييدهم لمصلحة المجتمع الإسلامي[8].

---

(1)الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت:817هـ/1413م)، القاموس المحيط، دار الجليل، (بيروت، د.ت)، 115/4.

(2) الجزية: الجزاء، جزي، وجزى، وجزاء: ما يؤخذ من أهل الذمة، إما جزاء على كفرهم، وإما جزاء أمنا لهم لا تأخذها منهم رفقاً وهي تشتمل على الأموال المفروضة على رؤوس اهل الذمة وتؤخذ ممن دخل الذمة من أهل الكتاب وغيرهم. ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء، إذ استثنى منها: الصبيان، والنساء، والمساكين، والمقعدون، والعميان، والخدم، والمجانين، أما وقت دفع الجزية فكان في آخر العام لا في أوله . ينظر ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت: 182هـ/798م)، الخراج، تح: د. احسان عباس، مطبعة دار الشرق، (بيروت،1405هـ/ 1985م)، ص122؛ الماوردي، أبو الحسن علي محمد بن حبيب البصري البغدادي(ت: 450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الحرية للطباعة، (بغداد، 1409هـ/1989م)، ص97-228؛ أبو حبيب، د. سعدي، القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، دار الفكر، ط2، (دمشق، 1408هـ/1988م)، 62/1؛ الخربوطلي، علي حسني، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، مكتبة الانجلو، (القاهرة،1378هـ/ 1959م)، ص72-73.

(3) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر احمد(ت:548هـ/1153م)، الملل والنحل، تح: امير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة، ط2، (بيروت، 1413هـ /1992م)،208/1.

(4) أهل الكتاب: هو مصطلح أطلقه القرآن الكريم على من آمن بالكتب السماوية السابقة، اليهود من أهل التوراة، والنصارى من أهل الإنجيل، وألحق بهم الصابئة وعُومِل المجوس كما يعامل اليهود والنصارى، وقد ذكر هذا المصطلح في القرآن الكريم إحدى وثلاثون مرة على سبيل الخبر أو الطلب . ينظر: الرازي، فخر الدين ضياء الدين عمر(ت: 604هـ /1207 م)، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، ط3، (بيروت، 1405هـ/1985م)، 19/23؛ سيد أحمد وآخرون، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، ط1، (بيروت،1429هـ/ 1973م)، 465/1.

(5) مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة،المكتبة العصرية، ط1، (بيروت، 1431هـ/2910م)، ص1160.

(6) البستاني، بطرس(ت:1300هـ/3883م)، محيط المحيط، مكتبة لبنان، (بيروت، د.ت)، 353/8.

(7) ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني (ت733هـ/1332م)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تح: فؤاد عبد المنعم احمد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط3، (الدوحة، 1408هـ/1988م)، 252/1؛ الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد(ت:458هـ/1066م)، الأحكام السلطانية، تح: محمد حامد الفقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة، 1356هـ/1938م)ص 278؛ المحمدي، عثمان عبد العزيز صالح، الإسهامات الحضارية لعلماء أهل الذمة في تنشيط بيت الحكمة العباسي، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، ع2، سنة 1431هـ/2010م، ص189.

(8) أبو يوسف، الخراج، ص72؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص228-239.

المحور الثاني

أثر اللغة العربية في غرس التعايش والتسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة

أثرت حركة الفتح العربي الإسلامي للعراق وبلاد فارس والشام ومصر تأثيراً كبيراً في حياة المجتمع العربي الإسلامي؛ لأن التوسع الإسلامي بمظاهره العسكرية والبشرية والفكرية، أحدث احتكاكاً ثقافياً، وحركة علمية كبرى نابعة من الإسلام، وهدفها: الدعوة إلى اعتناق العقيدة الإسلامية، فأقبل سكان البلاد المفتوحة على دراسة مصادر الشريعة الإسلامية: القرآن، الحديث، الفقه، وبرز فيهم الكثير من العلماء الذين أصبح لهم أثر كبير في نشر الثقافة العربية والحركة الفكرية[1].

تميّز العصر العباسي الأول باختلاط كبير بين سكان الأمم المفتوحة وامتزاجها فيما بينها، وبذلك استطاع الخلفاء العباسيون بسياستهم المتسامحة المنفتحة أن يحدثوا امتزاجاً قوياً بالعناصر والأقوام والشعوب والجماعات المختلفة[2]، التي ضمنتها الدولة العربية، وهو امتزاج لم يبلغوه بامتلاك الأرض المفتوحة، بل بلغوه باحترام الاختلاف والتنوع والتعدد الديني والفكري والثقافي والاجتماعي الذي تميزت به تلك المجتمعات[3].

وفي ظل التسامح الفكري، ظلت كثير من اللغات الأصلية متداولة حتى في أكثر البيئات عروبة مثل: (العراق، وبلاد الشام)، ونقصد بها الآرامية أو السريانية، فضلاً عن الفارسية والتركية واليونانية وغيرها[4].

وبذلك امتزجت الثقافة العربية الإسلامية بثقافات أمم كثيرة، فتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة، وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية والطبية وغيرها.

وسنشير إلى ابرز لغتين كانتا سائدتين في ذلك العصر وكالاتي:

1- اللغة العربية:

لا يخفى على المرء، ما للغة العربية من أهمية عظمى، كونها لغة القرآن[5] الكريم والسُنّة النبوية المطهرة، ولا يصح ان يقرأ المسلم القرآن الكريم إلا باللغة العربية، من قول الله تعالى: **﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾**[6]، وقال تعالى: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾**[7]، وتعد قراءة القرآن الكريم ركن من أركان الصلاة،التي هي ركن من أركان الإسلام، وهي لغة أهل الجنة كما ورد في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ: **((أحِبوا العرب لثلاثٍ: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي))**[8].

ومن هذا المنطلق نجد الثعالبي[9]، يعبر عن هذه اللغة أبلغ تعبير فيقول في مقدمة كتابه: "**... ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها، وصرف همته إليها ...**".

---

(1)ابن النديم، محمد بن اسحق(ت:385هـ/995م)، الفهرست، مكتبة الانجلو، (القاهرة، 1348هـ)، ص99- 100؛ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة(ت: 668هـ/ 1270م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت، د.ت)، ص33؛ القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي(ت: 821هـ/1418م)، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، (القاهرة-1914م)، 73/9-74.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص51- 52؛ الخطيب البغدادي , أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت،(ت: 463هـ/1071م)، تاريخ بغداد , تح: الدكتور بشار عواد معروف، دار العرب الإسلامي، (القاهرة، 1422هـ/2001م)، 95/4.

(3)ابن القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف،(ت: 646هـ/1248م)، تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء)، مكتبة المثنى، (بغداد، د.ت)، ص221-223.

(4) المصدر نفسه، ص175؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص257، 329.

(5) الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، (بيروت، 1995م)، ص50.

(6) سورة الزخرف، الآية /3.

(7) سورة الشعراء، الآيات/ 193-195.

(8) الهيثمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي(ت: 974هـ/1567م)، مبلغ الإرب في فخر العرب، تح: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، (القاهرة، 1987م)، ص20.

(9) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(ت: 249هـ/1037م)، فقه اللغة وسر العربية، تح: عبد الرزاق المهدي، احياء التراث العربي، (بيروت، 1422هـ/2002م) ص1.

ومن هنا اكتسبت اللغة العربية القداسة النورانية والخلود السرمدي، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1]، فيحفظ الله تعالى كتابه بحفظ اللغة العربية، فهي باقية ببقائه إلى يوم الدين، فضلاً عن كونها كانت وما زالت وسيلة من وسائل التعايش بين المسلمين وغيرهم، فضلاً عن كونها لغة الشعر العربي والحضارة العربية الإسلامية، فاللغة العربية – ذاتها– لغة حية[2] أدت رسالتها في الحياة خير أداء، وعبرّت في عصورها الأولى عن حاجات المجتمعات التي تتخذها لغة لها، تعبر عن مطالبها وآمالها وعلومها وآدابها وفنونها[3]، ومازالت مستعدة للتعبير عن الحياة، وما جدَّ فيها، ومستعدة ان تتسع أكثر من ذي قبل لكل جديد مبتكر ومخترع حديث، وهي من أغنى لغات البشر ثروة لغوية، لذا فقد اقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم اللغة العربية[4]، ودراسة آدابها، وأخذوا يصوغون أفكارهم وعلومهم وآدابهم بما ينسجم والدين الإسلامي والتقاليد العربية، فأصبحت العربية اللغة السياسية والثقافية السائدة [5]، وقد أدى انتشارها إلى الشعور بالانسجام والتجانس بين أبناء الأمم المحررة والمفتوحة رغم اختلاف قومياتهم وأديانهم فوّحدت اللغة العربية انتماءهم وشعورهم وأهدافهم، وكان لها اثر في إقبال الكثير من غير المسلمين على الدخول في الإسلام[6]، لم يكن إقبال غير العرب على تعلم العربية وترك لغتهم الأصلية بسبب الإكراه والإجبار وإنما قال المستشرق بارتولد[7]: "إن غلبة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة، وأن تسامح العرب أدى إلى انتشار العربية"، فدرس حنين بن اسحق[8] اللغة العربية حتى أصبح حجة فيها[9].

وبعد أن قطع الموالي[10] وأهل الذمة مرحلة كبيرة في تعلم اللغة العربية وآدابها اخذوا ينقلون إليها علومهم فاستطاعوا بذلك إضافة علومهم وأفكارهم إلى ذخيرة العرب المسلمين، فتكونت من مزيج تلك الحضارات حضارة مطبوعة بالطابع العربي والأسلوب الإسلامي، وأخذت تنمو وتزدهر منذ العصور الإسلامية الأولى (الراشدي والأموي)[11] وأتت ثمارها في العصر العباسي، وهذا ما أسهم في إشاعة روح التعايش والتسامح الديني الذي أغدقه العرب المسلمون على أهل الذمة، فنبغت منهم عناصر من اليهود والنصارى والصابئة واهم ما برزوا فيه: الترجمة من اليونانية والسريانية والهندية إلى

(1) سورة الحجر، الآية / 9.

(2) علي، عبد الرحمن عبد الحميد، الأدب العربي (العصر الإسلامي والأموي)، دار الكتاب الحديث، (القاهرة، 2005م)، ص24.

(3) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة: حسين مؤنس، دار الهلال، (القاهرة، 1387هـ/ 1968م)، ص210.

(4) ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي(ت: 456هـ/1064م)، الفصل في الملل والاهواء والنحل، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط3، (بيروت، 1428هـ/2007م)، 133/1؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط16، (بيروت، 2005م)، 23/1.

(5) ابن النديم، الفهرست، ص244.

(6) ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين بن الفلاح(ت 1089هـ– 1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، (دمشق –1986م)، 92/2؛ ديمومبين، موريس غودفروا، النظم الإسلامية، ترجمة: فيصل السامر وصالح الشماع، (بغداد، 1952م)، ص12.

(7) بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش، الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف، ط3، (القاهرة، د.ت)، ص30.

(8) أبو زيد حُنين بن اسحق العبادي، نسبة إلى العُبّاد: وهم من أهل الحيرة، الطبيب المشهور، عرف لغة اليونانيين معرفة تامة، وتعلم العربية وآدابها عندما ذهب إلى البصرة، ودرس هناك على تلاميذ الفراهيدي وسيبويه كان له الفضل في إدخال كتاب العين للفراهيدي إلى بغداد، سافر إلى جنديسابور لدراسة الطب، والى بلاد الشام والإسكندرية لتعلّم اللغات، بلغت مؤلفاته (250) كتاباً في مختلف صنوف المعرفة توفي سنة 260هـ/873م. لمزيد من التفاصيل ينظر: صاعد الأندلسي، صاعد بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد الثعلبي(ت: 462هـ/1070م)، طبقات الأمم، دار الطليعة، (بيروت، 1405هـ/1985م)، ص36؛ القفطي، اخبار العلماء، ص171؛ ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد(ت 1681هـ/1282م)، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، احسان عباس، دار صادر، (بيروت، د.ت)، 217/2.

(9) ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص185.

(10) هم المسلمون من غير العرب، ومعظمهم من الفرس والأتراك، ومفردها الموالي: مولى وتعني في اللغة: الرب، والمالك، وتعني أيضاً العصبة والناصر، والحليف، وما انضم إليك فعز لعزك والمولى المعتق، ابن منظور، لسان العرب، 4/5؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني(ت: 1205هـ/1790م)، تاج العروس، (بيروت، د.ت)،240/6.

(11) المصدر نفسه، ص189.

العربية، فضلاً عن ترجمة الموروث الفارسي إلى العربية[1]، واستفاد اليهود من العلوم العربية التي كانت سائدة في الدولة العربية الإسلامية، فترجموا بعضاً من المؤلفات العربية إلى العبرية، واتقن بعضهم اللغة العربية وآدابها، واهتموا بقواعد النحو[2]، لكن اليهود كانوا أقلهم تأثيراً في الحضارة وتأثراً بها، كما قال المستشرق ديورانت[3]: "ولم يكن لليهود القابلية الفكرية والعلمية على الإبداع الفكري فحتى التصوف اليهودي ... وتأثروا بالكتب المسيحية والمتصوفة الهنود والمصريين".

يبدو أن بروز هؤلاء اليهود في بعض الميادين يعود إلى إطلاعهم على الحضارة العربية الإسلامية ودراستها، فاستقوا من مناهلها المختلفة، ولم يتم ذلك إلا عن طريق تعايش المسلمين معهم، وكان لإشاعة التسامح الديني الذي استمده العرب المسلمون من تعاليم القرآن والسنة النبوية أثره في حسن معاملة أهل الملل الأخرى[4]، أما النصارى في العراق فقد نَعِموا بعد الفتح الإسلامي بالحرية الدينية، ولما كان أغلبهم عرباً، فقد التفوا حول المسلمين، وأقبلوا على العناية باللغة العربية وآدابها، وأخذوا ينقلون من السريانية إلى العربية [5]، وقد برز الصابئة في علم الفلك[6]، والتنجيم[7]، وعدوه عنصراً مهماً من العناصر التي يعتمد عليها دينهم ومستقبلهم، فهم يعتقدون أن كل كوكب يحكم في يوم من الأيام، ويتحكم ملائكة معنيون بالأيام، ومن هنا كانت لهم صفات فلكية[8]. ان اهتمام الصابئة بدراسة الفلك والتنجيم، يعود إلى اعتقادهم بالتنبؤات وأثر النجوم على مستقبل الإنسان أيضاً، وقد عملوا الطلاسم والسحر والكهانة والتنجيم والتقويم[9].

ولما اتصل الصابئة بالخلافة العباسية، صار لهم شأن كبير في نقل هذه العلوم إلى العربية، ولعل ازدهار الحضارة وتطور العلوم في العصرين الأموي والعباسي، يعود إلى رغبة المسلمين في الإطلاع على علوم الأمم الأخرى ومعارفهم[10].

إن إقبال أهل الذمة بأعداد كبيرة على الدخول في الإسلام، ساعد كثيراً على انتشار اللغة العربية بينهم، بهدف إتقان القرآن، الكريم وفرائض الإسلام، واقتضت الحاجة بالنسبة لهم إلى تنقيط الحروف العربية، وإلى معرفة قواعد اللغة العربية، وهو ما اصطلح على تسميته فيما بعد بـ: علم النحو[11]، كان على سكان البلاد المفتوحة، أن يتعلموا العربية وأن يقرأوا ويكتبوا بها ليستفيدوا منها في دينهم ودنياهم، حتى أنهم تعلموا النحو لإصلاح لغتهم[12]، واقبلوا على تعلّمها فعلاً ونقلوا

(1) ابن النديم، الفهرست، ص224 وما بعدها.

(2) زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، (القاهرة، د.ت)، 114/2؛ غنيمة يوسف رزق الله، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، دار الوراق، ط2، (لندن، 1418هـ/ 1997م)، ص167.

(3) ديورانت، ول وايريل، موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار نوبليس، (بيروت، 2008م)، 136/14.

(4) الشافعي، محمد بن ادريس(ت204هـ/820م)، اختلاف الحديث، تح: عامر أحمد، (بيروت، 1985م)، ص510.

(5) ابن النديم، الفهرست، ص24؛ اليوزبكي، توفيق سلطان، تاريخ أهل الذمة في العراق، دار العلوم للطباعة والنشر، (الرياض، 1403هـ/ 1983م)، ص382؛ ارنولد، سير توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وآخران، مكتبة النهضة المصرية، ط3، (القاهرة، 1971م)، ص70.

(6) علم الفلك: هو العلم الذي يهتم بدراسة الكون المحيط بنا، كما يهتم بدراسة الأرض كواحدة من الكواكب، وبعد من أقدم العلوم التي عرفها الإنسان، ولم يزل علماً لا يهتم به، إلا عظماء المفكرين والحكماء . ينظر: ابن النديم، الفهرست، ص205؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص60؛ الموسوعة العربية العالمية، 482/17.

(7) دراوور، الليدي، الصابئون المندائيون، دار صادر، (بيروت،1365هـ/ 1964م)، ص133-135؛ خالد، عقيد، وأحمد، ويحيى، الصابئة المندائيون وعقائدهم، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1428هـ/2007م)، ص25.

(8) ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، 50/1، 210/3.

(9) الشهرستاني، الملل والنحل، 50/2.

(10) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص37؛ سيديو، ل.أ، تاريخ العرب العام، ترجمة: عادل زغير، نشر البابي الحلبي، (القاهرة، 1948م)، ص383-385.

(11) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت:808هـ/1405م)، المقدمة، دار القلم، (بيروت،1398هـ/ 1978م)، ص454-455؛ بروكلمان، الشعوب الإسلامية، ص26-27.

(12) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد بن أحمد(ت:356هـ/966م)، الأغاني، دار الكتب العلمية، ط2، (بيروت، 1412هـ/1991)، 176/5؛ أحمد أمين، فجر الإسلام، (الحياة العقلية)، لجنة التأليف والترجمة والنشر،(القاهرة، 1359هـ/1941م)، ص175.

علومهم وحتى كتبهم المقدسة كالتوراة والإنجيل والزبور[1]؛ وذلك لإظهار تراثهم الحضاري والثقافي للفاتحين، ونتيجة لشعورهم برغبة المسلمين للإطلاع على علوم ومعارف الأمم الأخرى[2]، والأبلغ من ذلك، كانت اللغة العربية تدرس في الأديرة[3]؛ لأنها من اللغات الأساسية التي تدرس فيها، ولم يكن تعليمها مقتصراً على القراءة والكتابة، بل كان يُعلَّم إلى جانبها أصول الكتابة، ورسم الحرف، وأنواع الخطوط، فضلاً عن تعليم الأمثال والحِكم، وقواعد اللغة وآدابها[4].

2-اللغة السريانية

لغة سامية مشتقة من اللغة الآرامية، وتعد تطوراً طبيعياً لها، موحدين بين اللغتين[5].

نشأت اللغة الآرامية، وهي أصل اللغة السريانية في الألف الأول قبل الميلاد، لتكون ضمن عائلة اللغات السامية[6]، وأصبحت من القرن السادس قبل الميلاد لغة التخاطب الوحيدة في الهلال الخصيب إلى ما بعد الميلاد، إذ تحورت تدريجياً واكتسبت أسمها الجديد (اللغة السريانية) في القرن الرابع الميلادي تزامناً مع انتشار المسيحية في بلاد الشام[7]، تعد السريانية، لغة الأم لطوائف السريان، الكلدان في العراق وسوريا خاصة، إذ أضحت من أهم العوامل التي تجمعهم، فضلاً عن أن هناك اتصال دائم بين اللغة السريانية واللغة العربية[8].

اكتسبت اللغة السريانية، أهمية دينية خاصة في المسيحية، أولاً لأن يسوع المسيح (عليه السلام)، قد تكلّم بالآرامية، التي تعد بمثابة اللغة الأم للسريانية[9]– كما أسلفنا– وثانياً لأن العديد من كتابات آباء الكنيسة، والتراث المسيحي قد حُفظ بالسريانية إلى جانب اللغة اليونانية، وأشار السيوطي[10]، إلى أن السريانية هي لغة أهل القبور، الذي فسّر سبب ذلك بكون السريانية لغة الأرواح والملائكة، في حين أشار ابن أبي شيبة[11]، إلى أن السريانية هي لغة يوم القيامة، على أن يتكلم داخلوا الجنة لاحقاً العربية، وفي ذلك أشار ابن كثير[12] عن سفيان الثوري[13]، قال: " لم ينزل وحي إلا بالعربية، ثم يترجم كل نبي

(1)المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين(ت: 346هـ/957م)، التنبيه والاشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، (القاهرة، د.ت)، ص98–99؛ ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، (القاهرة،1382هـ/ 1963م)، ص157.

(2) الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي(ت: 626هـ/1228م)، معجم الأدباء المسمى إرشاد الاريب إلى معرفة الأديب , تح: احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت 1414هـ/1993م)، 483/2؛ اليوزبكي، تاريخ أهل الذمة في العراق، ص382.

(3) دي، طرازي، خزائن الكتب، دار الفكر، (بيروت، د.ت)، ص512؛ اسحق، روفائيل بابو، مدارس العراق في العصر العباسي، دار الحرية للطباعة، ط2، (بغداد، 1973م)، ص37؛ ينظر: لوبون، حضارة العرب، ص27.

(4)علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط4 (د.م 1422هـ/ 2001م)، 298/8.

(5) الأصفهاني، الأغاني، 178/5؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص332؛ داوود، المطران إقليمس يوسف، اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية، مطابع الآباء(دمشق، 1996م)، ص9.

(6) د. هبو، تدريس اللغة السريانية ضروري للمهتمين بالدراسة الأدبية المقارنة، بحث ضمن كتاب اللغة السريانية وسيط لنقل التراث الأدبي القديم، صحيفة الفداء، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، محافظة حماه، 29 ت2، 2010م.

(7) داوود، اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية، ص17.

(8)بشور، وديع، سوريا صنع دولة وولادة امة، دار اليازجي، (دمشق،1414هـ/ 1994م)، ص134.

(9) داوود، اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية، ص20.

(10) وقال الحافظ السيوطي في منظومته: **ومن غريب ما ترى العينان ان سؤال القبر بالسريان**

ينظر: السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1424هـ/2004)، 31/6.

(11) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد(ت: 235هـ/849م)، المصنف في الأحاديث والآثار، تح: اسامة بن إبراهيم بن محمد، المكتبة الوقفية، (د.م، 2002م)، 474/1.

(12) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، تح: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط2، (الرياض، 1420هـ/ 1999م)، 15/8.

(13) سفيان الثوري: أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الربابي التميمي، ولد سنة: 97هـ/716م، كان أحد أئمة الإسلام، وعلماً من أعلام الدين، هو شيخ الإسلام، أمام الحفاظ، من العلماء العاملين في زمانه، المجتهد، مصنف كتاب الجامع، إماماً في الحديث، وغيره من العلوم، ورعاً زاهداً توفي سنة:126هـ/778م، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 386/2؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن

بالسريانية واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية"، أما الإمام ابن حنبل[1]، فقد ذكر أن السريانية كانت لغة النبي آدم عليه السلام، والنبي نوح عليه السلام.

أصبحت اللغة السريانية ردحاً طويلاً من الزمن لغة العلوم والفنون والآداب، لاسيما في مدينة الرّها[2] (أورفة حالياً في تركيا)، والتي نشأت بها بنوع خاص، أولى المدارس السريانية، وتقسم إلى لهجتين متقاربتين، الأولى: السريانية الغربية نسبة إلى لغة أهالي غرب نهر الفرات، والثانية هي السريانية الشرقية، نسبة إلى لغة أهالي شرق نهر الفرات، وبنوع خاص إلى الرها، تكتب اللغة السريانية بالأبجدية السريانية المؤلف من اثنين وعشرون حرفاً تجمع في خمس كلمات: أبجد، هوز حطي، كلمن، سعفص، قرشت[3]، واللغة السريانية تكتب من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى الصفحة إلى أسفلها، مثلها مثل كل اللغات السامية، ولابدَّ من القول، ان العربية، والعبرية، والسريانية من أصل واحد، والفروق بينها ناجمة عن التطور الطبيعي للمجتمعات بحسب مناطق انتشارها، وبخصوص ذلك قال ابن حزم الأندلسي[4]: "إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً، أن السريانية والعبرانية والعربية، التي هي لغة مضر لا لغة حميّر لغة واحدة، تبدلت بتبدل مساكن أهلها".

التفاعل الحضاري بين اللغة العربية والسريانية

لابدَّ لنا بعد تقديم هذه النبذة القصيرة عن اللغة العربية واللغة السريانية، أن نتطرق إلى التفاعل بين هاتين اللغتين، الذي أدى بالتالي إلى تفاعل بين الحضارتين: الحضارة العربية الإسلامية، والحضارة السريانية، وليس إحلال لغة وثقافة مكان أخرى. وظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وتوجهت جيوشه إلى تحرير البلاد المجاورة، ونشر الإسلام فيها، فساندته المسيحيون العرب، إذ فتحوا أبواب المدن بذاتها مهلِّلين للفاتحين[5]، لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة من التفاعل بين الحضارتين العربية والسريانية، ومن ثم بين اللغتين، ومما ساعد على نضوج ذلك التفاعل وبروزه بشكل فعال، معاملة المسلمين لهم بالحسنى، فضلاً عن الحرية الدينية التي أتاحها لهم الدين الإسلامي وتعاليمه السمحاء[6]، مما جعلهم يتغلغلون في مفاصل الدولة وقطاعاتها الحيوية، مثل: بناء الأسطول وجباية الضرائب، ونالوا امتيازات عديدة أخرى[7].

عثمان(ت:748هـ/1347م)، سير اعلام النبلاء، تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، (بيروت، 1405هـ/1985م)، 230/7.

(1) ابن حنبل، الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد الشيباني(ت: 241هـ/ 855م)، العلل ومعرفة الرجال، المكتب الإسلامي، (بيروت، 1407هـ/ 1988م)، ص5822.

(2) الرها: مدينة سريانية تاريخية في الجزيرة الفراتية بين الموصل والشام ستة فراسخ، عرفت لاحقاً في العصور الكلاسيكية بـ: اسمها بالرومية: أذاسا أهلها يتحدثون اللهجة السريانية من اللغة الآرامية، ضمت إلى الإمبراطورية الرومانية سنة 212م، ثم أصبحت بعد انتشار المسيحية فيها مركزاً دينياً وثقافياً مهماً للمسيحية والسريانية، تعاقب عليها البيزنطيون والفرس الساسانيين قبل أن يدخلها المسلمون صلحاً بقيادة عياض بن غنم سنة 17هـ/638م، وقال قوم: انها سميت بـ: الرّها بن الروم بن لفطي بن سام بن نوح عليه السلام . ينظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي(ت: 626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار صادر، ط2، (بيروت، 1415هـ/ 1955م)، 105/3-106.

(3) داوود، اللمعة الشهية في نحو اللغة العربية، ص17؛ اللغة السريانية لغة ثقافة وحضارة، قناة عشتار الفضائية 29 ت2 سنة 2010، ويذكر في هذا الخصوص أن اللغة العربية كانت تستخدم الترتيب ذاته، قبل أن يقوم نصر بن حارث الليثي بترتيبها المعمول به اليوم.

(4) الأحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد محمد شاكر، دار الأفاق الجديدة، (بيروت، 1980م)، 30/1.

(5) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت:310هـ/922م)، تاريخ الأمم والملوك، تح: عبد، علي مهنا، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط2، (بيروت، 1433هـ/2012م)، 147/2- 150؛ بشور، سوريا صنع دولة، ص114-120.

(6) ابن الفقيه الهمذاني، أبو بكر احمد بن اسحق بن إبراهيم(ت290هـ/902م)، بغداد مدينة السلام، تح: صالح احمد العلي، دار الطليعة، (بغداد، 1398هـ/1977م)، ص63؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 138/2؛ هويدي، فهمي، موطنون لا ذميون، دار الشروق، ط3، (بيروت، 1420هـ/1999م)، ص102.

(7) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي(ت: بعد سنة 384هـ/ 994م)، طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (القاهرة، 1375هـ/1955م)، ص16؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص173؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص240؛ بشور، سوريا صنع دولة، ص148.

استمر الوضع على حاله، طوال عصر الدولة الأموية باستثناء مدة قصيرة من التوتر في العلاقة، غير أنه بعد زوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، بدأت مرحلة أخرى متمثلة بمرحلة الترجمة[1]، إذ كان العرب يجهلون اللغة اليونانية التي دُونت بها أغلب المؤلفات العلمية القديمة، أمثال مؤلفات أرسطو[2] وأفلاطون[3]، وغيرهما.

ومع اهتمام الخلفاء، ولاسيما أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد وابنه المأمون بالعلوم، فقد عُهد بعملية الترجمة إلى السريان، فكانت الترجمات تتم على مرحلتين، من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية[4].

نقل العرب المسلمون الأدب السرياني إلى لغتهم، وقد أشار المؤلفون: ابن النديم[5]، وابن جلجل[6] والقفطي[7] وابن أبي اصيبعة[8]، وغيرهم إلى العديد من المؤلفات التي ترجمت عن السريانية إلى العربية في أرجاء الدولة العباسية[9].

ازدهرت الترجمة على أيدي السريان خلال المدة الممتدة بين (132–291هـ/ 750–904م)، فقد عكفوا على ترجمة أمهات الكتب السريانية واليونانية إلى العربية، وكان على رأس أولئك المترجمين في بيت الحكمة: حنين بن اسحق الطبيب النسطوري– كما ذكرنا – فقد ترجم إلى اللغة السريانية رسالة من رسائل جالينوس، وإلى العربية تسعاً وثلاثين رسالة أخرى، وترجم أيضاً كتب المقولات الطبيعية والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتاب الجمهورية، وكتاب القوانين والسياسة لأفلاطون، فكان المأمون يعطيه ذهباً زنة ما ينقله من الكتب، وقيل أنه كان يكتب بخط عريض وبحروف كبيرة من أجل الحصول على أكبر كمية من الذهب[10]، وكتاباته كلها كتبها على ورق سميك[11]؛ لذا كان سبباً في بقاء ترجماته إلى عصور لأن الورق السميك أكثر قدرة على مقاومة الزمن.

وقد أقام المأمون يوحنا بن البطريق[12]، الترجمان أميناً على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية والسريانية إلى وتولى كتب أرسطو وابقراط[1]، وساعدت هذه الترجمة على الاحتكاك بـ: السريان (النصارى) فساد التعايش بينهم الذي تولد

(1) ابن النديم، الفهرست، ص204؛ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت845هـ/1441م)، شذور العقود في ذكر النقود، نشر جيرارد، (د.م، 1997م)، ص32؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص55.

(2) أرسطو طاليس (384– 322ق.م): فيلسوف يوناني قديم، كان أحد تلاميذ أفلاطون، ومعلم الاسكندر الأكبر، كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم، هو ثاني أكبر الفلاسفة الغرب بعد أفلاطون، من مقولاته: الفقر والد الثورة والجريمة، إن تدرك يعني أن تعاني، السعادة مرهونة بنا، ولمزيد من التفاصيل ينظر: ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص86.

(3) أفلاطون: يعني اسمه (واسع الأفق) (428– 348ق.): فيلسوف يوناني كلاسيكي رياضياتي، كتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعد مؤسس أكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم، تأثر بأفكار معلمه سقراط، كما تأثر بإعدامه الظالم، أسس أفلاطون الفلسفة المثالية، يغلب على مؤلفاته طابع المحاورة . للمزيد من التفاصيل .ينظر: ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص79–80.

(4) القفطي، تاريخ الحكماء، ص109؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص37.

(5) الفهرست، ص403.

(6) طبقات الأطباء، ص68.

(7) تاريخ الحكماء، ص171.

(8) عيون الأنباء، ص257.

(9) ابن النديم، الفهرست، ص110؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص65؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص249.

(10) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص259؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك(ت: 764هـ/1363م)، الوافي بالوفيات، تح: احمد وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، (بيروت، 1420هـ/2000م)، 130/13؛ على الرغم من الثقة الكبيرة بهذين المصدرين، إلا أن هذه المعلومة غير دقيقة، إذ ليس من المعقول أن يكون هذا العالم الجليل بهذه العقلية المادية، وهو صاحب الإنتاج الغزير في مجال النقل والترجمة والتأليف أولاً، كما ان الخليفة العباسي لم يكن من السذاجة بحيث يتصرف هكذا ثانياً.

(11) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص257.

(12) يوحنا بن البطريق أو يحيى بن البطريق: ترجمان، أميناً على الترجمة، حسن التأدية للمعاني، ألكن اللسان في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، عاصر الخليفة الرشيد والمأمون، ترجم لأفلاطون الجمهورية، وطيماوس، وكذلك لأرسطو الحيوان، والآثار العراقية والعالم، وجزء من كتاب النفس، توفي سنة 203هـ/815م . الحموي، معجم الأدباء، 35/11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 210/1.

نتيجة نشاط الباحثين من المسلمين والنصارى، وأدى هذا الانفتاح إلى التعاطي فيما بينهم فأثمرَ عن تعلم السريان للغة العربية، وشجعهم في ذلك يونانية التي أصبحت الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون، وكان لهم الفضل الكثير في نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية في العصر العباسي[2].

نخلص إلى القول، كرم الخلفاء العباسيين الذين قدموا الحفاوة للسريان[3]، وخدم السريان العلم والفلسفة بما ترجموا من كتب الفلسفة الان اللغة السريانية كان لها الدور الكبير كوسيط لنقل العلوم والمعارف من اليونانية إلى العربية .

المحور الثالث

حركة التعريب والترجمة [4]

أثرت الفتوحات الإسلامية والفكر الإسلامي أثراً كبيراً في عملية التعريب، ولأجل تحقيق: المساواة بين مختلف الأمم والشعوب أقبل العرب على التزوج بالأجنبيات من البلاد المفتوحة، هذا الإقبال الشديد كان له أثره في إقبالهم على تعلم العربية وإتقانها[5].

ولم يلبث الخلفاء أن انشأوا في جميع المدن المهمة مراكز علمية، وجمعوا فيها كل عالم قادر على ترجمة علوم اليونان وكتبهم، ولاسيما كتب أرسطو وجالنيوس وغيرهم ونقلها من السريانية إلى العربية[6].

ولم يدم اكتفاء العرب بما نقل إلى لغتهم طويلاً، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية، ليستقوا منها مباشرة فأصبحت مهنة الترجمة، عملاً وراثياً يتولى عليه من الأسرة الواحدة تلو الأخرى[7].

بدأت المحاولات الأولى في تعريب العلوم خلال العصر الأموي، وكانت على الأغلب جهود فردية وعلى نطاق ضيق[8]، واقتصرت على العلوم العلمية: الطب، والفلك، والعلوم العقلية: المنطق، والفلسفة والهندسة، وأسماء أشياء عرفها العرب بعد اتصالهم بـ: الروم، وأسماء طبية أو نباتية: أو كلمات نصرانية[9]، وأول كتاب طبي ترجم إلى العربية كان من خلافة مروان بن الحكم الأموي (64هـ/683م) وهو كناش[10][11].

---

(1) ابقراط: ابن اقليدس بن ابقراط، ولد حوالي سنة 460 ق.م، وتوفي حوالي سنة 377ق.م، أبو الطب وأعظم أطباء عصره، أول مدون لكتب الطب، خلصه من آثار الفلسفة وظلمات الطقوس السحرية معتمداً على المنهج العلمي في ملاحظة الحالات المرضية، نسبت له الكثير من المؤلفات، صاحب فكرة القسم الشهير الذي يقسمه الأطباء قبل مزاولة مهنة الطب، من حكمه: كل مرض معروف السبب موجود الشفاء، إنما نأكل لنعيش، لا نعيش لنأكل، ليس معي من فضيلة العلم، إلا علمي بأني لست العالم . ينظر: ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص174.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص411؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 95/4؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص39.

(3) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص63؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص169.

(4) يقال، ترجم الكلام: اذا بيّنه وأوضحه، ويقال: ترجم كلامه، إذا فسره بلسان غيره، وترجم كلام غيره وعنه: نقله من لغة إلى أخرى، ومنه الترجمان . ينظر: الجوهري، الصحاح، 1566/4.

(5) الشهرستاني، الملل والنحل، 42/1؛ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت: 255هـ/ 869م)، البخلاء، دار الفكر، (بيروت، 1386هـ/1967م)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط2، (مصر، 1379هـ/ 1960م)، 10/2.

(6) ابن النديم، الفهرست، ص379؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص125؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأبناء، ص257.

(7) المقريزي، شذور العقود في ذكر النقود، نشر جيرارد، (د.م، 1997م)، ص32.

(8) ابن النديم، الفهرست، ص338؛ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله(ت 1067هـ/ 1657م)، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث، (بيروت– د.ت)، 681/1؛ القّنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي الحسيني، (ت1307هـ/1889م)، أبجد العلوم، قدم له وراجعه: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، (بيروت– 1412هـ/1992م)، 252/2.

(9) أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، ط3، (بيروت، د.ت)، 281/1.

(10) كناش جمعها كناشات: أوراق تجعل كالدفتر يقيّد فيها الفرائد والشوارد . ينظر: الزبيدي، تاج العروس، 347/4.

(11) ابن النديم، الفهرست، ص411؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص80؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، 250؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 31/29.

توسعت حركة التعريب خلال القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي بتأثير النصارى ورغبة بعض الأمويين، فكان خالد بن يزيد الأول (ت: 85هـ/704م)، الملقب بـ: حكيم آل مروان [1]، أول من ترجم كتب اليونان إلى اللغة العربية، وأنه اشتغل في الكيمياء[2]، ووضع فيها المؤلفات[3]، ووصفه ابن النديم[4] قائلاً: "كان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة".

وشجع عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/ 717-719م)، تعريب كتب الطب، فأمر بنشر كتاب الطب الشرعي، الذي نقله إلى العربية متطبب من البصرة، يدعى: ماسرجويه [5] في عهد الخليفة مروان بن الحكم وقد وجده في خزائن الكتب بـ: بلاد الشام[6].

وأشهر من قام بدور التعريب في العصر الأموي: يعقوب الرهاوي[7] الذي ترجم كثيراً من الكتب اليونانية إلى العربية[8]، وعلى هذا، فان حركة الترجمة والتعريب قد سبقت العصر العباسي لاسيما في مجال الأسس والمبادئ التي تم من خلالها انتقاء نوع المادة المعرّبة، قدر تحقيقها لفائدة علمية معينة.

أما في العصر العباسي الأول، فقد خدم السريان، العلم والفلسفة بما ترجموا من كتب الفلسفة اليونانية التي أصبحت الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون، وكان لهم الفضل الكبير في نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية [9].

أقبل كثير من الفرس على تعلم اللغة العربية والتثقف بآدابها، ومنهم موسى بن سيار الاسواري[10]، أحد القصاص الذي أعجب به الجاحظ[11] قائلاً: "ومن أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان في المشهور يجلس العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يُحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأي لسان هو أبين".

---

(1) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن عبدالله(ت:571هـ/1175م)، تاريخ دمشق، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، (بيروت، 1415هـ/1995م)، 116/5؛ الحموي، معجم الأدباء، 35/11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 210/1؛ ابن كثير، ابو الفدا، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي(ت:774هـ/1372م) ن البداية والنهاية، تح: علي شبري، دار الفكر، (بيروت، 1407هـ/1986م)، 236/8.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 412/9.

(3) ابن النديم، الفهرست، ص303؛ بارتولد، الحضارة الإسلامية، ص69.

(4) الفهرست، ص419.

(5) ماسرجوية: يهودي المذهب سريانياً، تولى تفسير كتاب اهرت بن أعين إلى العربية الذي وحده الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (رحمه الله)، في خزائن الكتب، وله من الكتب كناش، كتاب في الغذاء، وكتاب في العين، شهرته في الطب. ينظر: ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، 232/1-333.

(6) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص163.

(7) الملفان مار يعقوب الرهاوي، هو أسقف الرها أحد أشهر الكتاب، ولد في بلدة عين دابا بالقرب من حلب حوالي سنة 20هـ/ 640م وتلقى علومه بـ: دير قنشرين الشهير، وانتقل لاحقاً إلى الإسكندرية ليكمل دراسته اللاهوتية عمل على تطوير نظام تنقيط اللغة السريانية، خلّف المئات من الكتب والمخطوطات في مواضيع متنوعة في اللاهوت والفلسفة، والتاريخ، واللغويات، توفي سنة 91هـ/708م. ينظر: Ar.wikipedia.org/wiki

(8) أمين، فجر الإسلام، ص162.

(9) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص 170؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص136؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص382؛ الجادر، عادل هامل، جانب من تاريخ اللغة السريانية في العراق، بحث ضمن: ندوة الأصل المشترك للغات العراقية القديمة، منشورات المجمع العراقي، (بغداد، 1999م)، ص141-142.

(10) نسبة إلى أسوارية، قرية من قرى اصبهان، أحد القصاص من أهل البصرة، له رواية ضعيفة للحديث ويقال: كان قدرياً، له مجلس مشهور في مسجد البصرة، الذي يعد مع المربد من أشهر المراكز الثقافية في البصرة، توفي سنة 150هـ/767م، ينظر: المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين الحموي الدمشقي(ت: 1111هـ/ 1699م)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، (بيروت، د.ت)، 435/4؛ الزركلي، خير الدين محمد بن محمد بن فارس،(ت: 1396هـ/ 1986م)، الأعلام، دار العلم للملايين، (بيروت، 1423هـ/ 2002م)، 323/7.

(11) البيان والتبيين، 139/1.

إن نبوغ الفرس في اللغة العربية وآدابها هو نتيجة للاختلاط بين العرب والفرس، فضلاً عن رغبتهم في معرفة أدبيات الدين الإسلامي ليس بواسطة اللغة الفارسية، إنما بلغة العرب التي نزل عليها القرآن الكريم.

وان ما نقل عن الهندية كتب الطب، والنجوم والرياضيات، والحساب، وبعض كتب السحر[1] وأهم ما عُرّب من كتب الهند: كتاب عُرف بـ: (السند هند) لمؤلفه (براهما جوبتا) في حركات النجوم[2]، وأمر المنصور بترجمته إلى العربية، وبأن يؤلف كتاب على نهجه وعهد بهذا العمل إلى محمد بن إبراهيم الفزاري[3]، الذي الف على نهجه كتاب يعرفه الفلكيون باسم: (السند هند الكبير)، وقاد هذا الكتاب إلى أبحاث كثيرة في الفلك، ومنه أيضاً عرف العرب نظام الأرقام والأعداد الهندية[4].

بدأت حركة تعريب واسعة النطاق في النواحي العلمية والثقافية في العصر العباسي الأول منذ خلافة أبي جعفر المنصور، الذي كان شغوفاً بالطب والهندسة، ويعتقد بالنجوم، وهو أول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث إليه كتاب أقليدس[5].

كما استهل أبو يوسف يعقوب الكندي[6](ت: 256هـ/873م)، فيلسوف العرب وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم آنذاك، نشاطه الفكري الذي لم يقتصر على تعريف أبناء جلدته بالفلسفة الأرسطوطاليسية، والأفلاطونية عن طريق الترجمة فحسب، بل تجاوز إلى توسيع آفاقهم العقلية، بما أنتج من دراسات في التاريخ الطبيعي، وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة[7].

نستنتج أن الحضارة اليونانية والإغريقية، كانت موضع اهتمام العرب المسلمين، ليس لتطبيقها بل للأخذ منها بما يتوافق وتعاليم الإسلام، لاسيما: تلك النظريات العلمية أو الفلسفية، لفلاسفة برعوا في هذا المجال.

وقد عني الخلفاء العباسيون منذ فاتحة عصرهم بهذا النقل عناية شديدة، فأنفقوا عليه من المال العام مبالغ كثيرة، يتقدمهم في ذلك الخليفة أبو جعفر المنصور الذي وصفه المسعودي[8]، بقوله: "كان أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ... وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية".

ودلالات هذا الرأي، ان الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي الأول تطلعت بعين الاهتمام، لما وصلت إليه الأمم الأخرى من منجزات علمية يمكن توظيفها في خدمة الدولة العباسية على مختلف تخصصاتها، صرفة، وإنسانية.

---

(1) القفطي، تاريخ الحكماء، ص170؛ ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارن بن توما الملطي(ت:685هـ/1286م)، تاريخ مختصر تاريخ الدول أو تاريخ الدول السرياني، أو تاريخ الزمان، تح: أنطوان صالحاني اليسوعي، ترجمة: السجستان ارملة، دار الشرق،ط3، (بيروت،1412هـ/ 1992م)، ص237؛ مصطفى، شاكر، التعريب في الإسلام، مجلة البيان، إصدار رابطة الأدباء، العدد 111، (الكويت، 1975)، ص52.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص86.

(3) محمد بن إبراهيم الفزاري: هو عالم فلكي ورياضي، ولد بالكوفة لأسرة عربية أصيلة، تتلمذ على يد أبيه، أبي اسحق إبراهيم الفزاري، هاجر إلى بغداد، درس اللغة السنسكرينة (لغة العلم في الهند) ثم انضم إلى فريق الترجمة في بيت الحكمة، صنع أول اسطرلاب في الإسلام، كان مولعاً بعلم الأرصاد من مؤلفاته في علم الفلك: كتاب المقياس للزوال، كتاب العمل بالإسطرلاب ذات الحلق، وقصيدة في علم النجوم، توفي سنة: 180هـ/796م . ينظر: القفطي، تاريخ الحكماء، ص205؛ الحموي، معجم الأدباء، 2294/5.

(4) هونكة، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وآخران، دار صاعد للطباعة والنشر، ط8، (بيروت، 2000م)، ص73-74.

(5) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص379.

(6) هو عربي خالص مسلم، ولد سنة 185هـ/801م، كان عهده عهد الترجمة والتعريب إلا أن الكندي كان فيلسوفاً قديراً صاحب رأي ينسب إليه زهاء مائتين وسبعين كتاباً ورسالة في المنطق والفلسفة والنجوم والحساب والهندسة والطب وحتى في أصول العقائد الدينية، درس في البصرة وبغداد، وبه بدأت الفلسفة الإسلامية، كان معاصر للمأمون والمعتصم بالله العباسي . ابن النديم، الفهرست، ص357؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص73-74؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص136؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص98؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص172.

(7) ابن النديم، الفهرست، ص204؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص229؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص40.

(8) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، ت 346هـ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط5، (بيروت، 1393هـ/ 1973م)، 241/4.

استدعى المنصور سنة 148هـ/ 765م، جورجيوس بن جبريل بن بختيشوع[1] كبير الأطباء في بيمارستان[2] جنديسابور[3]، ورئيس مدرسته؛ ليكون بجانبه، وقد نقل كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية[4]، وممن لمع اسمهم في عصر المنصور في الترجمة أبو يحيى البطريق (ت: 180هـ/796م) إذ عُني بنقل مجموعة من كتب الطب اليوناني[5].

وفي مجال أسماء العقاقير، كان حنين بن اسحق، يضع في بعض الأحيان المصطلح اليوناني لاسم عقار ما يقابله بالعربية والسريانية والفارسية، وبهذا الخصوص قال ابن النديم [6]: " كان حنين بن اسحق فاضلاً في صناعة الطب، فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية "؛ لهذا أُختير حنين للترجمة وأؤتمن عليها،وعين لها كتاباً عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويراجع حنين ما ترجموا[7].

نشطت حركة الترجمة في عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً، وأوكل الرشيد هذه المهمة إلى يوحنا بن ماسويه[8]، وكان طبيباً من مدرسة جنديسابور، فقد ترجم الكتب الطبية القديمة، وعيّنه أميناً على الترجمة، ووضع كتّاباً حذّاقاً يكتبون بين يديه[9]، الأمر الذي يضعنا أمام حقيقة أن أمانة الترجمة، تعني أنها مسؤولية كبرى، ولابدّ من تبادل الثقة مع من يتولاها، وهو تعبير عن روح التعايش والتسامح الذي كان سائداً بين الخليفة وغير المسلمين .

وللبرامكة فضل في إذكاء الترجمة حينئذ، فقد شجعوا ما استطاعوا على نقل الكتب النفيسة إلى العربية من اللاتينية (الرومية) واليونانية والفارسية والهندية، وعن ذلك قال الجاحظ[10]: "اجتلب يحيى بن خالد البرمكي[11] أطباء الهند مثل

(1) كانت له خبرة بصناعة الطب ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج، خدم بصناعة الطب لدى الخليفة المنصور، وكان حظياً عنده رفيع المنزلة، نال منه أموالاً جزيلة، وقد نقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربية، استدعاه المنصور من جنديسابور لمعالجته من مرض ألم به، فعالجه وفرح به الخليفة فرحاً شديداً وأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل، وبعد أيام عرف الخليفة تغيّر في وجهه، وعلم أنه مُنع من الشراب فأمر وزيره أن يحضره له بنفسه من قطربل وحمل منها إلى غاية ما أمكنه من الشراب الجيد. ينظر: ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص65؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص382؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص183–184؛ الجميلي، د. رشيد، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، الكتاب والتوزيع والاعلام والمطابع، (بنغازي، د.ت)، ص178 . وهنا نؤكد أهمية الحرية التامة التي منحها الخليفة المنصور لهذا الطبيب، وهذا دليل على التعايش والتسامح الديني اللذان أبداهما الخليفة تجاه الآخر.

(2) بيمارستان: دار المرضى، المستشفى. سيد احمد وآخرون، المعجم الوسيط، ص485. أصلها فارسي ومعناها (محل المريض) كانت لها أثرا للعلاج، وأيضا معاهد لتدريس الطب، وكانت البيمارستانات مستشفيات عامة تعالج فيها الأمراض الباطنية والرمدية والعقلية، وتمارس فيها العمليات الجراحية، وكان الأطباء المسلمون هم أول من فرق بين المستشفى العام ودور العجزة والمصحات التي تعزل فيها المجانين، وأصحاب الأمراض الخطيرة مثل الجذام، ينظر: الموسوعة الحرة بيمارستان. ar.wikipedia. org.

(3) جنديسابور: تقع في إقليم خوزستان، بناها الأكاسرة لإسكان أسرى الروم فيها، وبعد ذلك احتضنت فلاسفة اليونان الذين اضطهدوا من قبل الأمير جستنيان، وقد أكرمهم كسرى أنوشروان وشجعهم على تأليف كتب الفلسفة أو نقلها إلى الفارسية، وبنى لهم مارستاناً ومدرسة طبية، أصبحت أشهر المراكز . ينظر: الحموي، معجم البلدان، 170/1.

(4) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص37.

(5) المصدر نفسه، ص42.

(6) الفهرست، ص294.

(7) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص68–69.

(8) أبو زكريا يوحنا بن ماسويه النسطوري (ت: 243هـ/ 857م)، ولد يوحنا في مدينة جنديسابور، تعلم الطب في مدرستها، هاجر إلى بغداد في بداية القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، ملتحقاً بأبيه الذي كان يعمل في المارستان، له مجلس كان يعقده في بيته يضم كبار علماء عصره، هو أول طبيب مارس التشريح، ترك مؤلفات ذات قيمة علمية في العلوم الطبية المختلفة منها: كتاب البرهان، وكتاب البصر، وكتاب الكمال... ينظر: ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص65؛ القفطي تاريخ الحكماء، ص38؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، 247/1.

(9) القفطي، تاريخ الحكماء، ص249؛ ابن اصيبعة، عيون الأنباء، 175/1؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 680/1 .

(10) البيان والتبيين، 92/1.

(11) هو أبو علي، والد جعفر البرمكي، ضم إليه الخليفة المهدي ولده هارون، ارضعته امرأته مع ابنها الفضل بن يحيى ورباه، فلما ولي الرشيد عرف له حقه، وكان يقول: هذا أبي، مفوضاً أمور الخلافة إليه، ولم يزل كذلك حتى نكبهم بقتل جعفر، وحبس يحيى في الرقة مع أولاده حتى توفي سنة 190هـ/ 805م، كان كريماً، فصيحاً، ذا رأي سديد، وفي أموره خير وصلاح. ابن قتيبة ,أبو مسلم محمد بن عبدالله بن مسلم

وبازيكر، وقليرقل، وسندباد وفلان وفلان "، وقد عملوا في البيمارستان الكبير في بغداد، وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند في نقل بعض الكنوز الهندية خاصة في الطب والعقاقير، وشمل نقلهم صحيفة طويلة في قواعد البلاغة سجلّها الجاحظ في كتابه، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة في الحكايات والاسماء مما تولع به العامّة[1].

كانت الدولة العربية الإسلامية، لاسيما في العصر العباسي الأول، عامل جذب لبقية الأقوام من أمم أخرى وديانات مختلفة، فاستعربوا، لما وجدوا من خصال تعبر عن روح التعايش والتسامح الديني الذي ساد في هذا العصر.

ازدادت عناية الرشيد واهتمامه بتعريب الكتب، فأمر بترجمة جميع الكتب اليونانية، كما وسّع ديوان الترجمة الذي أنشأه المنصور لنقل العلوم إلى العربية، وزاد عدد موظفيها كما تم نقل كتب حكماء الفرس التي جمعت من خراسان وفارس إلى اللغة العربية[2].

وليس من مقصد لهارون الرشيد في ترجمة الكتب ونقلها إلى اللغة العربية، إلا لإغناء الفكر العربي من علوم الأمم الأخرى والانفتاح على ثقافات لم تصل إلى العرب بحكم طبيعة حياتهم، ومعاشهم، وان ما وجدوه من علوم ومعارف، شكّل نهضة علمية وفكرية أسهمت في الازدهار الحضاري.

ولما تولى المأمون الخلافة، اهتم بتعريب علوم الأوائل واقتدى بسياسة والده الرشيد في اهتمامه بالعلوم، وأخذ يُضَّمن شروط الصلح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة، فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث، ان ينزل للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية، وكان من بين ذخائرها الثمينة، كتاب بطليموس في الفلك، فأمر المأمون بتعريبه وسماه: المجسطي[3].

إن هذا الاتفاق بين المأمون وملك الروم، يدل دلالة واضحة على اهتمامه برقي الدولة العباسية في المجالات العلمية والفلسفية بما يجعل منها امة مواكبة لحضارات بقية الأمم الأخرى. وبلغت حركة التعريب أشدها في عصر المأمون، إذ حرص على نقل ما يتفق مع العقلية العربية الجديدة، فبلغ التمازج الثقافي بين الثقافة العربية الإسلامية الجديدة، وعلوم الأولين درجة كبيرة من التقدم[4]، وبهذا التمازج الثقافي تولدت معايشة حقيقية بين المسلمين وغير المسلمين.

إن ازدهار التعريب لا يعطي ميزة للمأمون أكثر من كونه رمزاً للعصر، وليس بالمحرك، ولا الباعث له إذ لم يبق المأمون في بغداد أكثر من عشر سنوات (204–214هـ/ 819–829م)، وكان تشجيعه للعلماء – في جانب كبير منه – عملاً سياسياً أكثر مما هو علمياً، وكل ما فعله المأمون في هذا المجال، أنه وسّع دائرة الترجمة الموجودة في البلاط العباسي[5].

ويبدو ان هذه الرؤية فيها شيء من عدم الإنصاف، إذ كان المأمون مولعاً بحب العلم والعلماء، وإلا ماذا سيربح سياسياً إن هو شجع العلماء وأجزلَ العطاء لهم، وكيف لا يكون المحرك والباعث لحركة جماهير المتعلمين والمترجمين، وعصره تميّز بغزارة التأليف والترجمة، وإجراء المناقشات والمناظرات الأدبية والحلقات الدراسية العلمية، وبحرية تامة وفي أغلب الأحيان اشترك هو فيها فعلياً.

الدينوري(ت:376هـ/889م)، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1406هـ/1986م)، 50/1؛ ابن الطقطقي، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا(ت: 709هـ/1309م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت، (بيروت، 1385هـ/1965م)، ص179–180؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 9/87–90.

(1) ابن النديم، الفهرست، ص424.

(2) ابن النديم، الفهرست، س247؛ أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، ط3، (بيروت، د.ت)، 179/1.

(3) المجسطي: معناه الترتيب الكبير في علم الفلك، وكان المرجع لهم في الفلك عند المسلمين، وعند الأوربيين في القرون الوسطى. ينظر: ابن النديم، الفهرست، ص339؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 458/2؛ جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام، 680/1.

(4) ابن النديم، الفهرست، ص339.

(5) الرفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، دار الكتب العلمية، ط2، (القاهرة، 1345هـ/ 1927م)، ص351؛ مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون،دراسة في علم التاريخ ومعرفة رجاله، دار العلم للملايين، (بيروت، 1399هـ/ 1979م)، ص47–48.

لا يمكن التغاضي عن الدور الكبير الذي تنهض به الترجمة في سبيل ترسيخ قيم التفاهم، والتقارب بين شتى الأمم والحضارات والثقافات، وتوفير بيئة خصبة من التعايش نتيجة الاحتكاك المباشر بين العلماء وعلى اختلاف أديانهم: الإسلامية، واليهودية، والنصرانية، والصابئية وغيرهم، فيصبح التسامح سمة طبيعية فيما بينهم.

كانت الترجمة أولى وسائط الاتصال والنقل المعرفي بين الدولة العربية الإسلامية وغيرها من الأمم، ولولا الترجمة لما عرفنا عن: أفلاطون وأرسطو وجالينوس وارخميدس وغيرهم(1).

ولم يكتف المأمون بترجمة كتب العلوم النافعة إلى العربية، بل أمر بوضعها موضع التطبيق العملي، فُبنيت المراصد، والمدارس التي أمر فيها بتعلم الكتب المترجمة، ونبغ في عصره، وما تلاه كبار المترجمين، وبفضل ذلك أصبحت بغداد في عصر المأمون أعظم مركز للترجمة والنقل في العالم(2).

من أبرز هؤلاء المترجمين حنين بن اسحق (ت: 260هـ/ 810م) الذي تتلمذ على يد يوحنا بن ماسويه(3) في بادي الأمر، قال ابن أبي اصيبعة(4): " **إن حنيناً كان من الصيارفة من أهل الحيرة(5)، وكان هذا يباعد بينه وبين يوحنا النسطوري، لأن أهل جنديسابور ومتطببوها يختلفون عن أهل الحيرة ويكرهون أن يدخل في صناعتهم أبناء التجار، فأمره أن يخرج من داره، فترك حنين المجلس وخرج باكياً، وصمم على التحدي حتى يتفوق على الجميع، وأقسم أن يكون بريئاً من دين النصرانية، ان هو رضيَّ أن يتعلم الطب، حتى يحكم اللسان اليوناني إحكاماً لا يكون في دهره من يحكمه إحكامه** " .

كان المترجمون النصارى أذن، في سباق مع الزمن، وتحد واضح للحصول على المعلومة التي تطور من قدراتهم وتبعث الرضا عنهم لدى الخليفة العباسي وهذا ترجمة لاهتمام الخليفة بأهل الذمة من العلماء والمفكرين وتشجيعهم والحظوة الكبيرة لمكانة العلم في ذلك الوقت.

وممن شهد براعة حنين بن اسحق في اللغة اليونانية، قول ابن جلجل(6): "إن حنيناً غدا بارعاً بلسان العرب، فصيحاً جداً باللسان اليوناني ..."، وترجم حنين إلى السريانية لجبرائيل بن بختيشوع وهو في السابعة من عمره كتاب جالينوس، المعنون: (أصناف الحميات) ثم كتابه: (القوى الطبيعية)، فاغتبط جبرائيل بذكائه وكفايته، وامتدحه عند الخليفة المأمون، الذي عينه عميداً لـ: (بيت الحكمة)(7) – كما سنوضح لاحقاً–

ازدهرت حركة التعريب والترجمة على أيدي أهل الذمة الذين عكفوا على ترجمة وتعريب أمهات كتب السريانية واليونانية والفهلوية والسنسكريتية، وكان ذلك بتأثير الخلفاء العباسيين، إلا أنهم لم يكونوا وحدهم الذين اهتموا بالترجمة والنقل

(1) ابن النديم، الفهرست، ص411؛ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص60؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 485/13؛ الصفدي، الوفي بالوفيات، 288/10؛ الدروبي، د. سمير، الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، (الرياض، 2007م)، ص7.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص205؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص170؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 905/1؛ بروكلمان، تاريخ الأدب، 165/4.

(3) ولد في مدينة جنديسابور، وتعلم الطب في مدرستها، ثم هاجر إلى بغداد في بداية القرن الثالث الهجري، ملتحقاً بأبيه الذي كان يعمل في المارستان، كان من الأطباء الماهرين والمترجمين الكبار، له مجلس يعقده في بيته وضم كبار علماء عصره، هو أول طبيب مارس التشريح، ترك مؤلفات ذات قيمة علمية من العلوم الطبية المختلفة منها كتاب البرهان، وكتاب البصير، وكتاب الكمال، توفي سنة 243هـ/857م. لمزيد من المعلومات ينظر: ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص65؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص382؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأبناء، ص247.

(4) عيون الأنباء، 257/1.

(5) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، وبالحيرة الخورنق يقرب منها مما يلي الشرق نحو ميل، والسدير في وسط البرية التي بينها وبين الشام، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية والنسبة إليها حاريّ، سميت الحيرة لأن تبعا الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم حيّروا به أي أقيموا به . ينظر: الحموي، معجم البلدان، 329/2.

(6) طبقات الأطباء، ص68.

(7) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص187–188.

إلى العربية، بل نافسهم الوزراء والأمراء والأغنياء وأهل العلم وأخذوا ينفقون الأموال الطائلة عليها[1]، وشجع البرامكة تعريب صحف الأعاجم حتى قيل: إن البرامكة كانت تعطي المعرِّب زنة الكتاب المعرب ذهباً[2].

ومن آثار مشاركة الفرس في العصر العباسي في الإدارة والقيادة والإمارة إلى الاختلاط والتمازج بينهما، تسربْ بعض الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية؛ ذلك؛ لأن العرب المسلمين بعد الفتح الإسلامي وجدوا بعض أسماء الأدوات والحاجات وأنواع المأكولات والملابس التي لا يوجد لها مقابل في العربية، فاضطروا إلى تعريبها، أو أخذها كما هي بلغتها الأجنبية بما يتفق واللسان العربي [3] .

وهنا لابدَّ من القول: أن عصر التعريب الحقيقي قادته جماهير المتعلمين والمترجمين، وان نشاط حركة التعريب والترجمة كان بدافع رسمي وشعبي[4]، وكان للإسلام أثر كبير في نجاح عملية تعريب علوم الأمم التي انتشر الإسلام فيها، وترك الازدهار الثقافي والفكري والحضاري ورغبة خلفاء المسلمين أثراً بارزاً ومهماً في توسيع هذه الحركة وانتشارها بين أغلب الشعوب التي خضعت لدار الإسلام[5]، وبهذا تجسدت فكرة الحوار والتعايش شكلاً ومضموناً بين العرب المسلمين وبين بقية الأديان، وبالتالي أفضى هذا التعايش إلى تسامح ديني خلاّق، انصهرت فيه كل الاختلافات والتناقضات وأصبحت لغة العقل هي اللغة السائدة بين مختلف الجماعات في العراق.

المحور الرابع

أثر بيت الحكمة في ترسيخ التعايش والتسامح الديني

اختلفت الآراء فيمن أسس بيت الحكمة العباسي، فالبعض يرجع تأسيسه إلى الخليفة أبي جعفر المنصور (136-158هـ/753-775م)؛ وذلك بسبب اهتمام المنصور بالعلم والعلماء، وهو الذي يُعد أول من رغب المسلمين الاشتغال في العلوم المختلفة، وحثهم على ترجمة الكتب الفارسية واليونانية والهندية إلى العربية، وجمعت تلك الكتب إلى الكتب التي أُلفت في الحديث والتاريخ والأدب وغيرها من العلوم في خزانة القصر، التي أصبحت فيما بعد الأساس الذي قامت عليه مكتبة بيت الحكمة[6].

أما أصحاب الرأي الثاني، فذكروا ان بيت الحكمة أسس على يد الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/786-809م)؛ نتيجة لما تميّزه به عهده من ازدهار حضاري وعلمي، لاسيما في مجال حركة الترجمة والتأليف، التي أغنت الفكر العربي الإسلامي بالمزيد من العلوم والمعارف المختلفة، وقام بهذا العمل العديد من علماء العرب والفرس والسريان[7].

وفضلاً عن ذلك، ألفت في عهده الكثير من المؤلفات في التاريخ والفقه والحديث وغيرها، لاسيما الكتب التي جمعت في عهد المنصور وابنه المهدي (158-169هـ/775-785م)، لذلك شيّد الرشيد خزانة لحفظ هذه الكتب من الضياع.

---

(1) ابن النديم، الفهرست، ص330؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص208؛ اليوزبكي، تاريخ أهل الذمة في العراق، ص382؛ هونكة، زيجريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة وتحقيق: فاروق بيضون وآخران، دار صاعد للطباعة والنشر، ط8، (بيروت، 2000م)، ص111-115.

(2) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص235.

(3) أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، 176/5؛ ينظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، 174/1؛ مصطفى، التعريب في الإسلام، ص54.

(4) أوليري، دي لاسي، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1981م)، ص100.

(5) نشأ تعبير دار الإسلام منذ أن أصبحت دار الهجرة- المدينة- في عصر الرسول ﷺ هي دار الإسلام، فلما أسلم أهل الأمصار صارت البلاد التي أسلم أهلها هي بلاد الإسلام، وبالمقابل ظهرت دار الحرب: كل موضع سوى مدينة رسول الله ﷺ، فقد كان ثغراً أو دار حرب ومغزى جهاد ودار الإسلام انتهى إلى كل بلد تطبق فيه الشريعة الإسلامية، وهي الدار التي تجري عليها أحكام الإسلام، ويأمن فيها بأمان المسلمين، سواء كانوا مسلمين أم ذميين. ينظر: ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر(ت: 751هـ/1349م)، أحكام أهل الذمة، دار رمادا للنشر، (الرياض، 1417هـ/1997م)، 5/1.

(6) القفطي، تاريخ الحكماء، ص220.

(7) ابن النديم، الفهرست، ص379؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص170؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 905/1.

ومما يؤكد قولنا: ان بيت الحكمة كان موجوداً أيام الرشيد ؛ بدليل ما ذكره ابن النديم[1]، قائلاً: "إن أبا سهل الفضل بن نوبخت كان في خزانة الرشيد وكان له نقل عن الفارسية"، وكذلك ما ذكر ياقوت الحموي في ترجمة علان الوّراق بقوله: "كان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون"[2].

أما أصحاب الرأي الثالث، فيرون أن الخليفة المأمون (198–218هـ/813–833م)، هو الذين شيّد بيت الحكمة، وقال في هذا الصدد المستشرق البريطاني ديلاس أوليري[3]: "لقد أنشأ الخليفة المأمون مدرسة سماها بيت الحكمة وجعلها معهداً تعد فيها الترجمات لكتب علماء اليونان لتداولها بين العرب ..."، وأيد هذا الرأي أرنولد[4]، قائلاً: " وقد أنشأ المأمون في بغداد داراً رسمية مجهزة بمكتبة"، ووافقهم هذا القول كل من ديورانت[5]، وأحمد شلبي[6].

ولكن رغم كل هذه الشهادات، ذكرنا أن بيت الحكمة كان موجوداً قبل عهد المأمون، بدليل أنه تألق في أيامه، وأبرزه إلى الوجود ؛ كونه كان أديباً عالماً، قرَّب العلماء وشجعهم على التأليف والبحث والمناظرة والترجمة؛ لهذا يمكن القول: ان المأمون استكمل عمل أبيه الرشيد وجده المنصور في بناء بيت الحكمة.

ومما يشار إليه، ان للبيت تسميات عدة، فهناك من سماه: (بيت الحكمة)، والبعض الآخر سماه: (خزانة الحكمة) وآخرون أطلقوا عليه هاتين التسميتين، فابن النديم[7] سماه مرة (بيت الحكمة) ومرة أخرى سماه: (خزانة الحكمة)، أما صاعد الأندلسي[8] فسماه بـ: (الخزانة) والقلقشندي استخدم تسمية (خزانة الحكمة)[9]، إلا أن تسمية (بيت الحكمة) هي التي اشتهرت، لكونها تجمع الكلمتان خصائص اللفظ الفصيح، ومعنى بيت الحكمة، هو: موضع الحكمة ومستقرها ومستودعها ومحلها، أي: مكانها[10].

يعد بيت الحكمة مؤسسة علمية، أطلق عليها لقب: أول جامعة في التاريخ، وأحدثت نقلة نوعية في الترجمة، تمهيداً للعصر الذهبي الإسلامي[11]، وكانت تضم مساكن للطلاب والمعلمين، وساحة، فضلاً عن مكان يأكل فيه روادها، يتكون البيت من طابقين، السفلي: يضم قاعات خاصة بخزن الكتب وأقسام الترجمة، والنسخ، والتأليف، والتجليد، والمطالعة والدراسة، أما قاعات الطابق العلوي، فكانت خاصة بإقامة المؤلفين والمترجمين، والعاملين وغيرهم، كان بيت الحكمة في بداية إنشائه داراً خاصة ملحقة بقصر الخليفة في مكان خارجي، ولما زاد عدد الكتب المترجمة والمؤلفة في عهد المأمون، نقلت إلى الرصافة بالقرب من باب الشماسية، وأضاف إليها مرصداً فلكياً[12].

أما إدارة بيت الحكمة، فقد أوكل الرشيد أمر البيت إلى: أبي زكريا يوحنا بن ماسويه النسطوري[13] (ت: 243هـ/857م).

---

(1) الفهرست، ص383.

(2) معجم الأدباء، 66/5.

(3) علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ص327.

(4) تراث الإسلام، ص453.

(5) قصة الحضارة، 177/2.

(6) موسوعة التاريخ الإسلامي، 247/3.

(7) الفهرست، ص100.

(8) طبقات الأمم، ص48.

(9) صبح الأعشى في صناعة الانشا، 466/1.

(10) الحكمة: الجمع حِكَم، العدل، العلم، الكلام الموافق للحق والصواب. سيد أحمد وآخرون، المعجم الوسيط ص183؛ محفوظ، بيت الحكمة ص329.

(11) ينظر: عبد الساتر، لبيب، الحضارات، دار المشرق، ط16، (بيروت، 2003م)، ص280؛ غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة، (تطوان، 1953م)، ص52–53.

(12) الحموي، معجم الأدباء، 117/6.

(13) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص65؛ ابن خلكان، تاريخ الحكماء، ص382؛ ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص246.

وفي عصر الخليفة المأمون أصبح يوحنا بن ماسويه سنة 215هـ/ 830م رئيساً لبيت الحكمة ؛ وذلك لمؤهلاته العلمية التي تميّز بها، وكان الخليفة المأمون من المعجبين به وبعمله وبطلاقة لسانه، وبحضور النكتة لديه وبدعاياته الشديدة[1].

أوكل الخليفة المأمون إدارة بيت الحكمة بعد ذلك إلى حنين بن اسحق، نظراً لنبوغه العلمي، وجدارته التي تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم[2].

وهكذا يتضح لنا، أن الخليفة المأمون يولي من بين رعيته للمناصب العلمية الرفيعة من هو أكثر علماً وبراعة في علوم الطب والترجمة بغض النظر عن دينه ومذهبه، وهذا ما يدل على سيادة روح التعايش والتسامح بين المسلمين وغير المسلمين.

أما في مجال العلم، فقد أصبح بيت الحكمة، مركزاً علمياً يضم جميع علماء العصر، وفي جميع الاختصاصات، ومن مختلف الملل مهمتهم الوحيدة تحقيق التقدم في مجالات العلم المتنوعة، فضلاً عن رعاية واهتمام الخلفاء بهم مما كان له اثر كبير في ازدهار البيت وتقدمه.

أصبح بيت الحكمة مَجمْع علمي ومرصد فلكي ومكتبة، ليقيم فيه طائفة من المترجمين من أهل الذمة، وتجري عليهم الأرزاق من بيت المال، وقد أرسل المأمون بعد ذلك بعثة علمية لشراء كتب الحكمة من بلاد الروم، مكونه من الحجاج بن مط[3]، ويوحنا بن ماسويه، وابن البطريق وسَلَم صاحب بيت الحكمة[4]، فأخذوا مما اختاروا عدداً كبيراً من كتب الفلسفة والمنطق والموسيقى والفلك[5]، وما أضافه الرشيد والمأمون من كتب العلم في لغات مختلفة وما جمعه يحيى بن خالد بن برمك من كتب الهند[6] .

الخاتمة:

إن ثمرة ازدهار التفاعل الثقافي والانفتاح الفكري في العصر العباسي الأول، أسهم في تغذية التعايش والتسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة، وبرزت من خلال البحث عدة استنتاجات، كالآتي:

- أطلق الإسلام على غير المسلمين– أهل الذمة– وعاملهم بموجبها وهي تعني: العهد والأمان والضمان، وتفيد أن هؤلاء في عهد المسلمين وذمتهم وحمايتهم كونهم جزءاً من تركيبة المجتمع العراقي.
- الانفتاح الفكري للناطقين بلغة الضاد على ما كان لدى الشعوب الأخرى في سياق الاختلاط، وانتشار اللغة العربية– لغة ثقافة مشتركة للتفاهم والفكر، فأصبحت لغة: العلم والحضارة، فأسهمت في تأصيل التعايش والتسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة.

---

(1) القفطي، تاريخ الحكماء، ص384؛ الجميلي، حركة الترجمة، ص177.

(2) القفطي، تاريخ الحكماء، ص385؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،217/2؛ الذهبي، تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت، 1987م)، 128/19.

(3) هو الحجاج بن يوسف بن مطر، من ابرز المترجمين الذين ساهموا في عملية ازدهار حركة الترجمة والنقل في بيت الحكمة ببغداد، أبان القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، قام بنقل كتاب أصول الهندسة لاقليدس مرتين في عهد هارون الرشيد وعرف بـ: النقل الهاروني، وتم النقل الثاني في عهد الخليفة المأمون، وعليه فقد عرف بـ: النقل المأموني، في بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ومن المصنفات الأخرى التي ترجمها إلى العربية: كتاب المجسطي، توفي سنة 218هـ/833م، ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص280.

(4) ابن النديم، الفهرست، ص174.

(5) ابن النديم، الفهرست، ص247؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 124/1.

(6) ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي(ت: 774هـ/1372م)، البداية والنهاية، تح: علي شيري، دار الفكر، (بيروت، 1407هـ/1986م)، 677/13؛ الفتيل، محمد فوزي، التربية عند العرب، مظاهرها واتجاهاتها، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة، 1966م)، ص10؛ هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص73–74؛ بروكلمان، تاريخ الأدب، ص39.

- إن موجة التعريب والترجمة، أدت إلى تمازج الثقافات وتفاعلها وبالتالي إلى تلاقحها، الذي بلغ أوجه وغاية ازدهاره في العصر العباسي الأول، لاسيما في عهد الخليفة المأمون، فكانت الترجمة من أقدم الوسائل التي أشاعت روح التعايش والتسامح بين المسلمين وأهل الذمة.
- أهمية الأثر الحضاري لبيت الحكمة العباسي في بغداد الذي يعد مؤسسة علمية وأول جامعة في التاريخ، الذي أحدث نقلة نوعية في الترجمة، لذا يعد فخراً للحضارة العربية الإسلامية، فكان خزانة كتب، ومركز ترجمة، والتأليف ومركز للأبحاث ورصد النجوم، مما جعله مجمعاً علمياً، عم في أروقته التعايش والتسامح الديني بين العلماء والتلاميذ من المسلمين وغير المسلمين على اختلاف مللهم وأديانهم.